في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للأستاذ احمد أمين

٣ — المربد

أما المربد - على وزن منبر - فضاحيـــة من ضواحى البصرة ؛ فى الجهة الغربية منهـا مما يلى البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا للابل ، قال الاصمعى : « المربد كل شىء حبست به الابل والغنم . . . وبه سميت مربد البصرة ؛ وانما كان موضع سوق الابل (١) » وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها . ويظهر أنه نشأ سوقا للابل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر او يخرجوا منه .

وقد كان العرب فى بادية العراق قبل الفتح الاسلامى ؛ ونزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، وكونوا فيه امارة المناذرة فى الحيرة ؛ فكان هذا الاقليم معروفا لهم قبل الاسلام ؛ وكانت الرحلات من البادية الى العراق ، ومن العراق الى البادية فى حركة مستمرة - ومعلوم أن البصرة انما خططت فى الاسلام فى عهد عمر بن الخطاب ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضرية - ولكن يظهر أن المربد كان قبل أن تخطط البصرة ، وكان قبل الأسلام ؛ وربما فهم ذلك من قول الطبرى : « بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له انطلق أنت ومن معك حتى اذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا . فأقبلوا حتى اذا كان بالمربد وجدوا هذا الكذان قالوا ماهذه البصرة »(٢) .

وقال فى اللســان - فى مادة ب ص ر - وقال ابن شـميل : البصرة ارض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وانما سميت البصرة بصرة بها » .

ولكن أخباره فى الجاهلية منقطعـة أو معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، انما كان له الخطر بعد ان فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد ان كان مربداً للابل فقط . واتصلت العمارة بينه وبين البصرة (١) حتى قالوا فيه : «العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، ودارين عين المربد» (٢)

وقد كان المربد فى الاسلام صورة معدلة لعكاظ ، كـان سوقا للتجارة ، وكان سوقا للدعوات السياسية ، وكان سوقا للأدب - جاء فى كتاب « مايعول عليه » المربد كل موضـــع حبست فيه الابل . . . ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه - كان مجتمع العرب من الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار ؛ ويبيعون ويشترون وهو « كسوق عكاظ » وقال العينى : « مربد البصرة .... محلة عظيمة فيها (فى البصرة) من جهة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار و يتناشدون الأشعار ويبيعون و يشترون » (٣)

وليس يهمنا هنا أثره التجارى ؛ وانما يهمنا أثره السياسى والادبى ، وهما مرتبطان بعضهما ببعض أشد الارتباط . فلا داعى للتفريق بينهما ؛ فقد كانت الأحزاب السياسية تنتج أدباً من خطب وشعر ، وكانت الخطب والشعر تقوى الأحزاب السياسية وتساعد فى تكوينها والحروب بينهما .

المربد فى عصر الخلفاء الراشدين

كانت أهم أخبار المربد فى ذلك العصر ما كان بعد قتل عثمان ابن عفان من سير عائشة أم المؤمنين الى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترســـل الى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان ، وبعبارة أخرى الخروج على على ؛ وكان معها طلحة والزبير ، ثم سارت الى المربد معهما وخرج اليها من قبل دعوتها ؛ وخرج الى المربد كذلك عامل على على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن اتى من الحجـــاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضـــاق المربد بمن فيه ؛ ورأينا المربد مجالا للخطبـــاء ممن يؤيد عائشـة

(١) لسان العرب فى ربد ومعجم ياقوت فى مربد (٢) تاريخ الطبرى ١ : ١١٦٦

(١) معجم ياقوت فى مادة مربد (٢) عيون الاخبار ٢ . ٢٢٢

(٣) عقد الجمان مخطوط بدار الكتب جزء ٤ — ٩٣

ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . أصحاب عائشـــة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ؛ ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ، ويعظم ما جنى عليه ويدعو الى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ، ويقولون صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم اليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما فى الخروج عليه ، ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله (١)

وهكذا ينتقل المربد الى مجمع حافل ، فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين وفيه معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة ، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الاحداث فى ذلك العصر ، وهو مقتل عثمان بن عفان ، وتحديد المسئولية فى قتله - ولم تفد هذه الحرب اللسانية فانتقلت الى حرب بالسلاح وأصبح المربد ساحة للقتال .

المربد فى عهد بنى أمية

كان العصر الأموي ازهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح وأستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب ، يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة ، جاء فى الطبرى « ان عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولا الى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة الى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ، ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من أحن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية « حكى فى النقائض أن زياد بن أبى سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه ابلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل لشد ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل فخلها ثم أنهبها ، وقال من أخذ شيئا فهو له ، وبلغ ذلك زيادا فبالغ فى طلبه فهرب .... فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد (١)

وكان الأمويون على وجه العموم - يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم ، إن أخذوا شيئا من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه الى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة ، أرادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم . وأحيوا العصبية الجاهلية . وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على احيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى زخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون . ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف لنا المربد أجل شعر أموى من هذا النوع - فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثراً من آثار المربد قيلت فيه ، وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة . يروى الأغانى أن جريراً والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل الخ فى خبر طويل . (٢)

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباسا خاصاً ويخرج الى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون الى كليهما ماقاله الآخر فيرد عليه . قال أبو عبيدة « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما وركب فرسا أعاره اياه أبو جهضم عباد بن حصين . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما باشعارهما فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضـــأن فى حطميـــة
وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست ســـلاحى والفرزدق لعبة
عليه وشـــاحا كرج وجلاجله (٣)

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتـــاب الله تهـــديم دارنا
بتهـــديم ماخور خبيث مداخله (٤)

(يتبع)

(١) انظر القصة بطولها فى الطبرى جزء ١ ص ٢٥٣١ طبع أوربا وفيه بعض ماقيل من من الخطب فى المربد فى ذلك اليوم

(١) النقائض ٦٠٧ و ٦٠٨
(٢) الاغانى ٤ — ١٣٢
(٣) النقائض ٦٢٤
(٤) النقائض ٦٨٣